المنهج النبوي في تعزيز التسامح

عبد الوهاب جان الأزهري*

التسامح دعامة من دعائم شريعة الإسلام، ومبدأ أصيل من مبادئ خُلق المسلمين، هذه حقيقة ثابتة، نصت عليها الآيات والتوجيهات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأكدتها سيرة النبي صلي الله عليه وسلم وسيرة خلفائه الراشدين، وسجلها تاريخ المسلمين في الشرق والغرب. لم يكن التسامح لدى الرسول القائد صلي الله عليه وسلم كمبدأ نظرية مجردة، أو قيمة مثالية خيالية، وإنما كان سلوكًا يومياً، وعملا واقعياً حياً، يظلل بظلاله الطيبة أصحاب العقائد و الديانات المخالفة التي يعيش أصحابها في ظل حضارة الإسلام.

إن رسول الله صلي الله عليه وسلم في تسامحه يطبق منهجاً ربانياً يعتبر من سمات ومعالم هذا الدين، قال تعالى : "وما جعل عليكم في الدين من حرج".[1]

وقال صلي الله عليه وسلم:" إني بعثت بحنيفية سمحة".[2]

وعبر عن هذا المنهج بقوله صلي الله عليه وسلم" إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة[3].

وطّبق الرسول مبدأ التعايش السلمي مع غير المسلمين، وعاشوا في دولته آمنين مطمئنين مستقرين، يمارسون عبادتهم بكل حرية، ويحظون بحماية تمكنهم من الاطمئنان على أموالهم ودمائهم، ولا يجوز لمسلم أن يعتدي على كتابي ما دام ملتزمًا بالعهد، وأن معاهد ميثاق المدينة أروع شاهد على التعايش السلمي بين مختلفي الديانات. حيث نصت هذه الوثيقة علي إعطاء الحقوق و الواجبات لغير المسلمين حتي الأعداء، منهم القريش، واليهود و النصاري و القبائل العربية الوثنية، وهذا دليل علي الإعتراف علي الآخرين بدياناتهم و كيانهم الإجتماعي و الشخصي والإنتمائي. و هكذا اعترف الغربيون علي سماحة الإسلام و نبيه صلي الله عليه وسلم.(والفضل ما شهدت به الأعداء)

التسامح في اللغة:

المسامحة في اللغة :السلاسة والسهولة والجود عن كرم وشجاعة[4]

وفى الاصطلاح :يقول مسكويه":وأما السماحة : فهى بذل بعض ما لايحب ، وأما المسامحة :فهى ترك بعض ما يحب ، فالسماحة إذن هى التعامل مع الغير بسهولة ويسر ورضا عن كل ما يبذله المتسامح".[5]

يعني :التسامح مع الغير في المعاملات المختلفة، ويكون ذلك بتيسير الأمور والملاينة فيها التي تتجلى في التيسير وعدم القهر، وسماحة المسلمين التي تبدو في تعاملاتهم المختلفة سواءً مع بعضهم، أو مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى.[6]

فالتسامح في الإسلام يعني التساكن والتعايش في إطار رؤية إسلامية تحترم حق الآخر في الرأي والعقيدة والفكر، من غير إخلال بمقومات التساكن، أو تجاهل لقيم الإسلام الثابتة.[7]

والتسامح دعامة من دعائم شريعة الإسلام، ومبدأ أصيل من مبادئ خلق المسلمين، هذه حقيقة ثابتة، نصت عليها الآيات والتوجيهات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأكدتها سيرة النبي صلي الله عليه وسلّم وسيرة خلفائه الراشدين، وسجّلها تاريخ المسلمين في الشرق والغرب.

---

*محاضر بكلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية ، إسلام أباد، باكستان

سماحة النبي مع قريش:

لم يكن التسامح لدى الرسول القائد صلي الله عليه وسلم مبادئ نظرية مجردة، أو قيمة مثالية خيالية، وإنما كان سلوكاً يومياً، وعقلاً واقعياً حياً، فكان صلي الله عليه وسلم يطبق التسامح في حياته العملية مع قدرته علي الإنتقام التي نجد الأمثلة كثيرة في سيرته العطرة السمحة، وسأكتفي بذكر بعضها:

1- قصة ثمامة بن أثال رضي الله عنه، وهو من سادات بني حنيفة اليمامة، حيث خرجت سرية للمسلمين قِبل نجد، فأسروه، وربط في سارية من سواري المسجد ،، ثم منّ عليه رسول الله

بإطلاقه، فأسلم، وخرج معتمراً إلى مكة، فعيرته قريش بأنه صبأ، فأقسم أن لا يصل إلى مكة من حنطة اليمامة و ميرتها شيء، إلا أن يأذن في ذلك رسول الله صلي الله عليه وسلم ، و فعل ذلك ، فاشتد ذلك على قريش، فأرسلوا يسألون رسول الله صلي الله عليه وسلم الرحم، ويقولون له: لقد قلت الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع فكتب رسول الله إلى ثمامة يأمره بأن يخّلي أحمال الحنطة والميرة لأهل مكة.[8]

فانظر إلى تسامحه مع هؤلاء الذين أخرجوه وصحابته الكرام من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله.

2- لقد أصيب يوم أحد إصابات كبيرة من أعدائه، حيث شجوا وجهه الشريف، وكسروا رباعيته في ذلك اليوم، بنفسي هو وأبي وأمي، ومع ذلك راوده أصحابه أن يدعو الله تعالى عليهم، فقا ل :"إني لم أبعث لعانًا،ولكني بعثت داعيًا ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون".[9]

3- ولما تمكن عليه الصلاة والسلام من الفتح العظيم، وقبض على ناصية الجبابرة الطغام، وهم لا يدرون ما يخبئ لهم غير أنهم يطمعون في تسامحه وحلمه وكرمه كما عهدوه فيه .يوم ذاك قال لهم رسول الله :"يا أهل مكة !ما تظنون أني فاعل بكم؟ (قالوا :خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم، عندئذٍ قال مقولته المشهورة الجارية مجرى الأمثال شهرة واستفاضة:" اذهبوا فأنتم الطلقاء".[10]

4- فقد تجلّت روح التسامح عند النبي –صلى الله عليه وسلم- حتى في الحرب فقد قال لهم أيضًا: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن."[11]

قتل أبي سفيان في هذا الموقف لا يستنكره أحد، ولا ترفضه أعراف الدول لا في القديم ولا في الحديث؛ فهو يُصَنِّفُ في القانون الدولي الحديث على أنه مجرم حرب؛ لأنه دبّر منذ سنتين محاولة «قتل جماعي» لأهل المدينة المنورة، ونَقَضَ منذ أيامٍ قليلةٍ عهدًا بينه وبين المسلمين راحَ ضحيّة نقْضِهِ عددٌ من الرجال والنساء قتلى. بل إن الذي يمكن أن يتوقعه أي متابع للأحداث أن يرفض رسول الله ﷺ إسلام أبي سفيان في هذا الموقف، ويظنّ –ظنًّا أشبه باليقين- أنه ما فعل ذلك إلا تَقِيَّةً، وخوفًا من القتل.لكن الرسول ﷺ لم يُظهِر شكًّا في إيمان أبي سفيان، بل قَبِل منه ببساطة، و لم يناقشه أو يستوثق منه، بل عفا عنه في لحظة واحدة!! لقد تناسى رسول الله ﷺ في لحظة واحدة كل الذكريات المؤلمة، والجراح العميقة؛ فقلبه ﷺ لا تغزوه الأحقاد، ولا سبيل للشيطان عليه.

ولو انتهت القصة عند هذا الحدِّ لكانت آية من آيات العفو والتسامح، لكن الذي حدث بعد ذلك يتسامى ويرتفع فوق درجة الأخلاق التي نعرفها، فلا يمكن أن يُفَسِّرَ إلا بأنه ﷺ نبيٌّ كريم..

لقد أعطى رسول الله ﷺ لأبي سفيان في هذا الموقف ما يكفل له الفخر أبد الدهر!! إنه ﷺ لم يكتفِ بإعطاء الأمان لأبي سفيان، بل أعطى الأمان لكل من يدخل دار أبي سفيان[12]!

5- و انظر تسامح النبي ﷺ مع هند بنت عتبة – زوجة أبي سفيان– من النساء اللاتي حاربن الإسلام طويلاً، ولسنواتٍ كثيرة، ولها ذكريات مؤلمة جدًّا في أذهان المسلمين، بل وعند رسول الله ﷺشخصيًّا. وهي زوجة أبي سفيان رضي الله عنه، وابنة عتبة بن ربيعة القائد القرشي المشهور، وكانت من أشدِّ الناس حقدًا على المسلمين، وكان هذا الحقد كبيرًا من أول أيام الإسلام، ولكنه زاد بشدة وتضاعف بعد غزوة بدر؛ بعد أن قُتل في ذلك اليوم أبوها عتبة بن ربيعة، وعمها شيبة بن ربيعة، وابنها حنظلة بن أبي سفيان، وأخوها الوليد بن عتبة..

فهؤلاء أربعة من أقرب الأقربين إليها، وهم جميعًا من سادة قريش؛ فأورث ذلك في قلبها كراهية لا يماثلها فيها أحد، وظلت على هذا العداء منذ بدر وحتى فتح مكة، وكانت من اللائي خرجن مع جيش الكفار في موقعة أحد، فكانت تُحمِّس الجيش القرشيَّ قدر ما تستطيع لقتال المسلمين، ولما فرَّ الجيش من أمام المسلمين في أول المعركة كانت تقذف في وجوههم التراب، وتدفعهم دفعًا لحرب المسلمين، و لم تفرَّ كما فرَّ الرجال!!..

ثم إنه بعد انتصار أهل مكة على المسلمين في نهايات غزوة أحد قامت بفعل شنيع، فقد قامت بالتمثيل بالجثث المسلمة الواحدة تلو الأخرى، فكانت تُقَطِّع الآذانَ والأنوفَ، حتى وصلت إلى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عمِّ الرسول ﷺفبقرت بطنه، وأخرجت كبده، وفي حقدٍ شديد لاكت منه قطعة، فما استساغتها، فلفظتها!!..

وقد أثّر هذا الموقف بشدة في رسول الله ﷺ، وترك في قلبه جرحًا عميقًا..

ولما فتح رسول الله ﷺمكّة، وأقبل أهلُها من كلِّ مكان يبايعون على الإسلام.. ومن بعيد جاءت هند بنت عتبة، وهي منتقبة متنكِّرة لا يعرفها ﷺ، تريد أن تبايع كما يبايع الناس[13] !!**وكانت بيعة النساء على** :أن لا يُشْرِكْنَ بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينه ﷺفي معروف[14]... لكن رسول الله ﷺكعادته وطبيعته يعفو ويصفح، فلم يُعَلِّقْ بكلمةٍ واحدة على كل ذكرياته المحزنة، بل تنازل عن كل الحقوق، وقَبِل إسلامها ببساطة، وأكمل البيعة مع النساء وكأنه لم يتأثر أبدًا!!

وسبحان مقلِّب القلوب! لقد حسن إسلام هند بنت عتبة رضي الله عنها، وكما كانت تخرج مع جيوش الكفار لتُحَمِّسَهَا لحرب المسلمين، بدأت تخرج مع جيوش المسلمين لتحمِّسَهُمْ لحرب الكفار!!

6- وكذلك تسامحه مع عكرمة و هو كان من أشد أعداء رسول الله ﷺضراوة في تاريخ السيرة النبوية كلها، وقد شرب العداوة جُلّ هذه المدة الطويلة من أبيه فرعون هذه الأمة وألدِّ أعداء الإسلام «أبي جهل»، ولكن عكرمة استمر وزاد في العداوة للدرجة التي جعلت الرسول ﷺيريق دمه عند فتح مكة باعتباره من مجرمي الحرب آنذاك .

بر الرسول مع عكرمة:

إن طريقه في الكفر طويل، وهو مطلوب الدم، وإذا وجده الرسول ﷺسيقتله بلا جدال.

وقد أرادت زوجة عكرمة «أم حكيم بنت الحارث بن هشام» –رضي الله عنها–[15] أن تنقذ زوجها، فذهبت –بعد أن أسلمت– إلى الرسول ﷺلتشفع عنده لعكرمة بن أبي جهل في أن يعود إلى مكة المكرمة آمنًا، وقالت: "قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأَمِّنْهُ"[16]

فردّ الرسول ﷺفي يسر وسهولة» :هُوَ آمِنٌ!!«

لم يذكر لها ﷺأنه مهدر الدم، ولم يذكِّرْها بتاريخه الطويل، ولم يقُلْ لها: أنتِ حديثة الإسلام جدًّا، فكيف تشفعين لغيرك؟!

لم يقل لها أيًّا من ذلك، ولم يشترط عليه أو عليها شروطًا، وإنما قال» :هُوَ آمِنٌ!«

وعاد عكرمة بن أبي جهل إلى مكة المكرمة، وقبل أن يدخلها إذا برسول الله ﷺيقول لأصحابه كلمات جميلة..

قال :"يَأْتِيكُمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا، فَلا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ الْمَيِّتِ يُؤْذِي الْحَيَّ، وَلا يَبْلُغُ الْمَيِّتَ"[17].

فأيُّ أخلاق كريمة كانت عند رسول الله ﷺهذه؟!!

ولنا عاد وجلس عكرمة بين يدي رسول الله ﷺ، وقال: يا محمد، إن هذه (وأشار إلى زوجته) أخبرتني بأنك أَمَّنتني!!..

فقال الرسول ﷺدون تفصيلات ولا شروط"صَدَقَتْ، فَأَنْتَ آمِنٌ"[18]

وفي لحظة واحدة انتقل عكرمة رضي الله عنه من معسكر الكفر إلى معسكر الإيمان!! ووهب عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه حياته للجهاد في سبيل الله عز وجل، سواءٌ في حروب الردة أو في فتوح الشام، حتى قُتِلَ شهيدًا رضي الله عنه في اليرموك[19].

7 –وكما فعل رسول الله ﷺمع أبي سفيان رضي الله عنه وعكرمة رضي الله عنه فعل مع كثيرٍ غيرهما، وكان موقفه مع صفوان بن أمية رضي الله عنه من أروع مواقف التاريخ قاطبة.

الرسول من أماناً له أخذ أن بعد وهب بن عمير عمه ابن به لحق البحر، في بنفسه يرمي أن يريد هارباً فرّ عندما أمية بن صفوان الله رسول إلى رجع العمامة اه أر فلما والأمان، الطمأنينة قلبه في تلقي كعلامة عمامته في الأمان هذا يتمثل صلي الله عليه وسلم ،، سوى لم يمض .أشهر أربعة :قال .شهرين بالخيار أمهلني :.قال صدق :قال .أمنتني أنك يزعم هذا "إن :وقال له صلي الله عليه وسلم إسلامه".[20] وحسن وأسلم عاد حتى يسير زمن

8- كما تسامح الرسول صلي الله عليه وسلم مع هوازن رغم محاربتهم له (صلي الله عليه وسلم) بعنف، وودخولهم معه في معركة هائلة، ولما عاد النبي صلي الله عليه وسلم إلى الجعرانة، جاءه وفد هوازن مسلمين يسألونه أن يرد عليهم ذراريهم، وأموالهم، واستعطفوه في هذا الشأن، فخيرهم النبي صلي الله عليه وسلم بين الأموال والأحساب، فاختاروا الأحساب على الأموال.

9- **الوصية النبوية بالأقارب غير المسلمين:**

ومن جمال الإسلام أن اختلاف الدين لا يُلْغى حقَّ ذوى القربى.وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه قالت: قدمت على أمى وهى مشركة فقلت يا رسول الله إن أمى قدمت على وهى راغبة أفأصلها؟ قال: «نعم صليها».[21] متفق عليه

إن البرّ والإحسان والعَدْلَ حقٌّ لكل مْنْ لم يقاتل المسلمين أو يُظاهر على قتالهم، بل حتى المقاتل يجوز برُّهُ والإحسان إليه .إذا لم يقوِّه ذلك على قتال المسلمين وأذاهم

سماحة النبي مع اليهود و النصاري

طبّق الرسول صلي الله عليه وسلم مبدأ التعايش السلمي مع غير المسلمين، وعاشوا في دولته آمنين مستقرين، يمارسون عبادتهم بكل حرية، ويحظون بحماية تمكنهم من الاطمئنان على أموالهم ودمائهم، ولا يجوز لمسلم أن يعتدي على كتابي ما دام ملتزمًا بالعهد، وتعد معاهدة المدينة أروع شاهد على التعايش السلمي بين مختلفي الديانات .

وفي المدينة حيث تأسس المجتمع الإسلامي الأول وعاش في كنفه اليهود بعهد مع المسلمين وكان صلى الله عليه وسلم غاية في الحلم معهم والسماحة في معاملتهم حتى نقضوا العهد وخانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما من يعيشون بين المسلمين يحترمون قيمهم ومجتمعهم فلهم الضمان النبوي ، فقد ضمن صلى الله عليه وسلم لمن عاش بين ظهراني المسلمين بعهد وبقي على عهده أن يحظى بمحاجة النبي صلى الله عليه وسلم لمن ظلمه فقال صلى الله عليه وسلم : ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة.

وشدد الوعيد على من هتك حرمة دمائهم فقال صلى الله عليه وسلم " :من قتل نفسًا معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما".[22]

ومن سماحة الإسلام في تحصيل الجزية :أنها تسقط عمن أسلم ، ولا يطالب بما عليه قبل إسلامه، ولا تؤخذ من الشيخ الكبير الذي لا يستطيع العمل ولا شيء له، وكذلك المغلوب على عقله لا يؤخذ منه شيء، ولا الرهبان والفلاحون الذين لا يقاتلون.[23]

وضرب لنا النبي صلي الله عليه وسلم المثل الأعلى والقدوة الحسنة في سماحة المعاملة والدعوة إلى الإسلام مع أهل الكتاب، فقد كان يزورهم، ويحسن إليهم، ويعود مرضاهم، ويأخذ منهم ويعطيهم.

1- قمة العدل معهم ولا يجوز غيبتهم

عن العرباض بن سارية قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أيحسب أحدكم متكئا على أريكته يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما فى هذا القرآن ألا وإنى والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذى عليهم»،[24]

2- فمن ذلك ما روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال" :كان غلام يهودي يخدم النبي صلي الله عليه وسلم فمرض، فأتاه النبي صلي الله عليه وسلم يعوده، فقعد عند رأسه فقال له :أسلم .فنظر إلى أبيه وهو عنده فقا ل :أطع أبا القاسم .فأسلم، فخرج النبي صلي الله عليه وسلم وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار".[25]

3- كما قام النبي صلي الله عليه وسلم بإكرام نصارى الحبشة، وقام بضيافتهم بنفسه.[26]

4- رسائله صلي الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء والقبائل من أجل دعوتهم إلى الإسلام أو المعاهدة والمصلحة إلى النجاشي، وكسرى، وهرقل إن فعله عليه الصلاة والسلام وحرصه على السلم تناقلتها ودونتها الكثير من الكتب والمصنفات الإسلامية وغيرها مما يدل على أصالة السلم في الإسلام، بل أن كتب الفقه، وغيرها من الكتب الإسلامية بينت أحكام التعامل مع أهل الكتاب عمومًا والذمي، ولا بأس أن نذكر طرفًا من هذه الإشارات سريعًا جاء في الواسطية: " وإن كان جارًا كافرًا بعيدًا، فله حق واحد، وهو حق الجوار، فأهل السنة والجماعة يأمرون بحسن الجوار مطلقًا ، أيًا كان الجار... " [27] كما بين المفسرون حق النفس في الحفظ عند المسلمين عند تفسير قوله تعالى :" وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا."[28] فقالوا : وهي" :النفس المسلمة، من ذكر وأنثى، صغير وكبير، بر وفاجر، والكافرة التي قد عصمت بالعهد والميثاق.." [29] وذكر ابن كثير في هذا السياق ماجاء في البخاري والترمذي إن النبي صلي الله عليه وسلم قال :"من قتل معاهدًا في ذمة الله وذمة رسوله، لم يرح رائحة الجنة وإن رائحتها توجد من مسيرة أربعين عامًا."[30] وفي كتاب غاية المطلب الذي جمع فيه أقوال بعض الفقهاء..." ويحرم قتل صبي ، وامرأة ، وراهب ، وقال جماعة :لا يخالط الناس ... وصبر إلا لرأي، أو قتال أو تحريض وإن تترسوا بمسلمين ورميناهم بقصد الكفار إن خيف علينا فقط، نصًا، وقيل الحرب والإحرام.[31].

5- أما نجران فقد كانت تتبع النفوذ الرومي، وكان أهلها على النصرانية،[32] فقد جاء وفد منهم بعد مرجع النبي صلي الله عليه وسلم من تبوك، وضم الوفد ستين راكبا ،ونزلوا في جزء من المسجد النبوي حيث ضربت لهم قبلة فيه، ولما حان وقت صلاتهم صلوا إلى بيت المقدس، ولم يعترض عليهم النبي صلي الله عليه وسلم مما يعكس احترام الآخر غير المحارب. ولما جاء في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجران في عقد الصلح معهم " :ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم، وأرضهم وملتهم . . .لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته."[33]

6- ولو تتبعنا المعاهدات التي صدرت عن النبي –صلى الله عليه وسلم–لوجدنا فيها ضروبًا من التسامح والمودعة والمساواة، ومن هذه المعاهدات " إعلان دستور المدينة الذي اشتمل على سبع وأربعين فقرة منها ما يخص موادعة اليهود كما يأتي:

7- إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

8- وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

9- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

10- وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

11- وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

12- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله –صلى الله عليه وسلم–[34]

وقد قام بتحليل هذه المعاهدة مؤرخ السيرة أ. د. أكرم بن ضياء العمري، وأنقل ما ذكره بخصوص اليهود فقال: قد تناولت البنود من 25 إلى 35 تحديد العلاقة مع المتهودين من الأوس والخزرج، وقد نسبتهم البنود إلى عشائرهم من العربية، وأقرت حلفهم مع المسلمين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين" وقد وردت العبارة في كتاب الأموال " أمة من المؤمنين " مما جعل أبا عبيد يقول: " فإنما أراد نصرهم المؤمنين ومعاونتهم إياهم على عدوهم بالنفقة التي شرطها عليهم، فأما الدين فليسوا منه في شيء، ألا تراه قد بين ذلك فقال لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم "[35]

من عدالة الإسلام وتسامحه:

- يأمر الله المسلمين معاملة من يخالفونهم في دينهم بالعدل، ولم يكتف به بل تجاوز في ذلك إلى التوصية بالبرهم، والبر فوق العدل.
- والإسلام يرجع كفة الصلح والمودة على العداوة والبغضاء.
- ومما ينتظم في حسن معاملة المسلمين لمن يخالفونهم في دينهم هو :ما سوىّ به القرآن بين الوالدين المؤمنين والوالدين المشركين في وجوب الإحسان إليهما.
- ومن التسامح في الإسلام :إباحته طعام أهل الكتاب، وتحليله ذبائحهم وإباحته للمسلم أن يتزوج من نسائهم.
- ومن التسامح أيضًا تسميتهم بأهل الذمة، فلفظ الذمة معناه :ذمة الله وعهده ورعايته.

وبعد استعراضه لجمله من هذه المحاسن الإسلامية تحدث عن محاربة الإسلام للتعصب، وحثه على حسن معاملة غير المسلمين وأعطى المثل الأعلى في ذلك فقال صلي الله عليه وسلم:" أعطى الرسول صلي الله عليه وسلم مثلا أعلى لمعاملة أهل الكتاب، فقد روي أنه كان يحضر ولائمهم ويشيع جنائزهم، ويعود مرضاهم ويزورهم ويكرمهم، حتى روي أن لما زاره وفد نصارى نجران، فرش لهم عباءته، ودعاهم إلى لجلوس عليها.

ويمثل ذلك ذكر صاحب كتاب السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، جملة من شمائله عليه السلام وأشار إلى: " رحمته بالضعفاء عمومًا، ووصيته بالجار ورحمته بالأطفال، ورحمته بالإناث، ورحمته بالأعداء في الحرب والسلم)" .[36]

وفي مقارنة بين ما فعله النبي صلي الله عليه وسلم و المسلمون مع أعدائهم، وبين ما فعله غيرهم، يقول أحد الباحثين" :عرف التسامح الإسلامي في التاريخ بصورة مشرقة لم تعرف البشرية له مثيلا ولا نظيرا في القديم والحديث، وشهادات المستشرقين والمؤرخين تؤكد ذلك، ويحسن مقارنتها بما فعل الرومان قبل الإسلام مع المخالفين لهم في العقيدة، وما فعله الأسبان في الأندلس، وما ارتكبه الصليبيون في القدس وبلاد الشام، وما يزال يفعله في كثير من بلاد المسلمين اليوم، مما لا مجال للتوسع فيه"[37].

تلك صور من سماحة النبي صلى الله عليه وسلم مع غير المسلمين وهو ما سار عليه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون من بعدهم

سماحة مدرسة النبوية مع الأعداء:

الصحابة والتسامح:

سار الصحابة رضي الله عنهم على منهج الرسول صلي الله عليه وسلم ، واقتدوا بسنته، واتبعوا تعاليمه، فيما يتعلق بالتعامل مع المسلمين وغيرهم، وما ذلك إلا لأصالة هذه التعاليم وليعلم العالم أنها غير خاصة به صلي الله عليه وسلم، بل هي من صميم الدين الإسلامي ، فعلى المسلم أولاً، وعلى البشرية ثانيًا، وإدراك ذلك والعمل على تأكيده بالقول والفعل ليس كما قال البعض :"يتحتم على المسلم أن يعلن غير المسلمين بالعداوة حيث وجدهم :لأن محاربة غير المسلمين واجب ديني، فأما أهل الوثنية فيجب أن يهاجموا في غير ما تردد..."[38] ولكن في هذا المقام وفي هذه العجالة لا يسعني أن تأتي على استعراض سيرهم وحسن معاملتهم رضي الله عنهم. لذا سأقتصر على أشارت عاجلة وبسيطة-:

1- جاء في كتاب " الجزية " باب الوصاة بأهل ذمة رسول الله صلي الله عليه وسلم حينما سأل الصحابة عن عمر رضي الله عنه أن يوصيهم في أهل الذمة قال رضي الله عنه :"أوصيكم بذمة الله، فانه ذمة نبيكم، ورزق عيالكم."[39] ففي الشرح الحديث زيادة عمرو بن ميمون " وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعدهم ، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا إلا طاقتهم " قلت ويستفاد من هذه الزيادة أن لا يؤخذ من أهل الجزية إلا قدر ما يطيق المأخوذ منه

2- وجاء في صحيح مسلم :"مر هشام بن حكيم بن حزام[40] على أناس من الأنباط بالشام، قد أقيموا في الشمس، فقال :ما شأنهم ؟ قالوا :حبسوا في الجزية، فقال هشام :أشهد لسمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول " : إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا ."[41]

3- أما كتاب مجموعة الوثائق السياسية، فقد ذكر من النصوص الوثائقية من خطب ومعاهدات ورسائل تمت بين المسلمين من الخلفاء وغيرهم وبين غيرالمسلمين، ما يدل على ما نحن بصدده من عظيم الرحمة والتسامح فذكر على سبيل المثال-:

أ- كتاب خالد بن الوليد في خلافة الصديق- رضي الله عنهما -إلى أهل الحيرة":..فلهم ما للمعاهد، وعلينا المنع لهم، فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم، لهم بذلك عهد الله وميثاقه، أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق..."[42] ثم أتى على ذكر الضعفاء منهم والمرضى وأصحاب الحاجة فقال: "وجعلت لهم :أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غني فأفتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله..."[43]

ب- كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي عبيدة رضي الله عنه في عدم تقسيم المدن المفتوحة "وامنع المسلمين من ظلمهم، والإضرارهم وأكل أموالهم إلا – حقها."[44]

ت- معاهدة حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مع أهل ماه دينار:"هذا ما أعطى حذيفة ابن اليمان أهل ماه دينار : أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم لا يغيرون عن ملةٍ ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولا هم المنعة ما أدوا الجزية ..."[45]

ث- معاهدة عمرو بن العاص رضي الله عنه مع أهل مصر على الأمان:"هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان، على أنفسهم وملتهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ..."[46] وقد أشار إلى منهج الرسول صلي الله عليه وسلم ومنهج الصحابة رضي الله عنهم وحفظ الإسلام للسلام الكثير من الباحثين والكتاب إلى أنه لا بأس أن نذكر ونؤكد على ذلك بما جاء في كتاب معالم الثقافة الإسلامية-:

" وقد حفظ الإسلام للذميين حريتهم في ممارسة عبادتهم وعقائدهم، وسمح لهم بأن يتمتعوا بكل ما يتمتع به المسلمون من حقوق التجارة والكسب والعمل والتنقل، حتى إنهم ليتمتعون بكثير مما لا يحق للمسلم أن يتمتع بها، فمعظم الفقهاء يبيحون للنصارى تعاطيهم الخمور والخنازير والتجارة فيها إذا كانت غير محرمة في دينهم." وقال في نص آخر"... المشركون يشتبكون في قتال عنيف مع الرسول والمسلمين ولكن الرسول يوصي بأسراهم خيرًا بسبب من الروح الإنسانية المتسامية، واليهود من أشد الحاقدين على الإسلام، ولكن عمر حين يرى الشيخ يتكفف الناس، يفرض له من بيت مال المسلمين..."

وهكذا نجد أمراء المسلمين في العصورالمتأخرة نهجوا علي منهج نبيهم ، وقد عاش المسلمون مع النصارى واليهود في جميع أقطار العالم الإسلامي خلال ألف وأربعمائة عام جنبا إلى جنب وأعطاهم الإسلام حرية المعتقد وبناء الكنائس ودور العبادة بينما كان اليهود في الطرف الأوروبي في القرون الماضية يعانون ما يعانونه من تهجير واضطهاد وتطهير عرقي لم يعرف التاريخ له مثيلا.

أما في العالم الإسلامي فقد فرض الإسلام على كل مسلم احترام أهل الذمة وجعل إيذاءهم إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم .وكان العدل ديدن كل الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والعثمانيين ، وقد ادعى يهودي على السلطان محمد الفاتح العثماني فاتح القسطنطينية أنه يسلب مالا منه فأرسل الحاكم إلى السلطان دعوة إلى الحضور وعند دخول السلطان لم يتزحزح الحاكم من مكانه بل بقي جالسا وأشار الحاكم إلى السلطان بلزوم الوقوف بجانب المدعى عليه إلى أن حكم بالحق على السلطان ... فلما ذهب اليهودي وخلا السلطان بالحاكم :قال السلطان :أتدري ماذا كنت فعلت لو فعلت غير ذلك وانتصبت قائما عند قدومي وأجلستني وحكمت ضد اليهودي قال لا، قال كنت قطعت عنقك بهذا السيف[47].

اعتراف الغربيين في تسامح الإسلام و نبيه صلي الله عليه وسلم:

و في أكثر من موضع جاء على ذكر شهادة – غير المسلمين – للإسلام بالتسامح وحسن المعاملة ، من هذه الأقوال شهادة الدكتور جوستاف لوبون (في كتابه حضارة العرب):

- "سيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم، أن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن، وأن العرب تركوا المغلوبين أحرارا في أديانهم."[48]

- قال غوستاف لوبون :" إن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمًة إلى الغاية، وإنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله، كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وسار خلفاؤه على سنته، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المرتابون أو المؤمنون القليلون الذي أنعموا النظر في تاريخ العرب."[49]

- وقالت الإيطالية لورا فتشا فاليري :" منحت تلك الشعوب حرية الاحتفاظ بأديانها القديمة وتقاليدها القديمة، شرط أن يدفع الذين لا يرضون الإسلام دينا ضريبة عادلة إلى الحكومة،تعرف بالجزية، لقد كانت هذه الضريبة أخف من الضرائب التي كان المسلمون ملزمين بدفعها إلى حكوماتهم نفسها، ومقابل ذلك منح أولئك الرعايا المعروفون بـــ (أهل الذمة) حماية لا تختلف في شيء عن تلك التي تمتعت بها الجماعة الإسلامية نفسها، ولما كانت أعمال الرسول صلي الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين قد أصبحت فيما بعد قانونا يتبعه المسلمون، فليس من الغلو أن نصر على أن الإسلام لم يكتف بالدعوة إلى التسامح الديني، بل تجاوز ذلك ليجعل التسامح جزءً من شريعته الدينية."[50]

- ونقل غوستاف لوبون عن روبرتسن قوله:" إن المسلمين وحدهم الذي جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وإنهم مع امتشاقهم الحسام نشرا لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحرا را في التمسك بتعاليمهم الدينية."[51]

- يقول عالم الاجتماع البارز كلود ليفي وستراوس: " إنَّ الإسلام هو الذي ابتكر السلام والتسامح، ويعتبر ذلك سبقًا للإسلام وانتصارًا دائما للمسلمين."[52]

- ويرى كارل بروكلمان أثنى على محمد صلي الله عليه وسلم عند فتح مكة وفي مواطن كثيرة ، قائلا: "وعلى الرغم من انه من لم يعتبر قبول مواطنيه الإسلام أمرًا واقعًا بعد، ولم يعاقب بالقتل من خصومه القدماء إلا أفرادًا قلائل ذوي جرائم خاصة بهم،... مظهرًا من التساهل والتسامح مع الآخرين قدرًا عظيمًا"[53].

التسامح في مذاهب الأخري

وفي مقارنة بين ما فعله المسلمونو نبيهم مع أعدائهم، وبين ما فعله غيرهم، يقول أحد الباحثين" :عرف التسامح الإسلامي في التاريخ بصورة مشرقة لم تعرف البشرية له مثيلا ولا نظيرا في القديم والحديث، وشهادات المستشرقين والمؤرخين تؤكد ذلك، ويحسن مقارنتها بما فعل الرومان قبل الإسلام مع المخالفين لهم في العقيدة، وما فعله الأسبان في الأندلس، وما ارتكبه الصليبيون في القدس وبلاد الشام، وما يزال يفعله في كثير من بلاد المسلمين اليوم، مما لا مجال للتوسع فيه."[54]

صورة التسامح في الإسلام لا تتم وتتضح معالمها، مع ما سبق بيانه، إلا بعد ذكر ما عليه غير الإسلام من مبادئ وأقوال تتعارض معه ويعتبرها البعض من صميم دينه وتعاليمه وفكره، وكما ضاق المحال عن بسط القول في أخلاق الصحابة وتسامحهم، كذلك يضيق المحال هنا عن ذلك، لذا سأشير إلى بعض الأديان والثقافات إشارات سريعة:

١ -ذكر الشهر ستاني من عقائد الثنوية " وأنهم يؤمنون بوجود إلهين " النور والظلمة " الخير والشر " وفصل في أقوال " المانوية " منهم مما وصف به إله الظلمة :"جوهرها: قبيح، ناقص، لئيم، كدر خبيث، منتن الريح، قبيح المنظر"، نفسها : شريرة، لئيمة – سفيهه – ضارة جاهلة" ، فعلها :"الشر والفساد والضر، والغم والتشويش والتغير، والاختلاف،" جهتها : "جهة تحت، وأكثرهم أنها منحطة من ناحية الجنوب وزعم بعضهم أنها بجنب النور ... ولم تزل تولد الظلمة شياطين."[55]

٢ -اليهود على الرغم من كونهم أهل كتاب سماوي، والأديان السماوية من المفترض أن تكون ملتهم واحدة من حيث الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، لكن نجدهم يصفون الله بصفات لا تليق بجلاله من صفات الشر وإرشادهم إلى إلحاق الأذى بالغير، و أذكر بعض النصوص من كتبهم الحالية:

- " وفعل بنو اسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين أمتعة فضة

وأمتعة ذهب وثيابًا وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين".[56]

- هكذا يرشد إله اليهود يزعمهم إتباعه إلى أذية الغير وسرقتهم وعلى لسان موسى عليه السلام ويصل بهم الأمر ذروته في سفر(التثينه) حينما نسبوا إلى الله قوله" ...:متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوبًا كثيرة من أمامك ... سبع شعوب أكثر وأعظم منك دفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فانك تحرمهم لا تقطع لهم عهدًا ولا تشفق عليهم ولا تعاهدهم ... ولكن هكذا تفعلون بهم تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار..."[57]

أنظر إلى ما في هذا النص من عداوة وقسوة، طرد شعوبهم، لا تقطع لهم عهدًا، لا تشفق عليهم لا تصاهرهم،تهدمون مذابحهم، تكسرون أنصابهم، تقطعون سواريهم، تحرقون تماثيلهم بالنار.

ويمثل هذه القسوة والوحشية والبعد عن التسامح وحسن الخلق تحدث يشوع إلى بني إسرائيل ، ولم يستثنى إلا امرأة زانية هي وأهلها من التنكيل والقتل:

- " فدخل الغلامان الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها ... وأحرقوا المدينة بالنار مع كل مابها ... واستحيا يشوع راحاب الزانية وبيت أبيها ... وحلف يشوع في ذلك الوقت قائلا: "ملعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبني هذه المدينة أريحا ..."[58]

أما ما ذكره أكثر الباحثين في التلمود وبنوده من تعاليم فإنه يشكل أزمة أخلاقيه عند اليهود ، بل يشكل جريمة في حق البشرية.[59]

وختم فؤاد حسين كلامه عن اليهود وأطماعهم بقوله :" فهاك من يخن صحفي يهودي ينشر مقالا في صحيفة التايمز اللندنية حول قيام دولة إسرائيل فيقول:

" عند ما تصبح لنا معشر اليهود السيطرة الكاملة على العقبة وخليجها ، فأننا سوف نستطيع مهاجمة الحجاز وتدمير الأماكن المقدسة الخرافية في مكة والمدينة."[60]

و هكذا بعض الفلاسفة الغربية يأتون بعض الأفكار وهي تؤدي الي الإرهاب و القسوة والعنف، وأذكر مثالا واحدا وهو قول الفيلسوف الغربي "راسل" ويؤكد بأن وجود " الدين" يواصل للقسوة والوحشية فيقول: "إن المبادئ الدينية ترجع إلى زمن كان البشر فيه أشد قسوة مما هم عليه الآن، ولهذا فهيا تميل إلى تخليد الأعمال الوحشية التي يتخلص منها الضمير الأخلاقي .... إن المفهوم الكلي لله مشتق من الدكتاتوريات الشرقية القديمة وهو مفهوم لا يليق بالإنسان."

لاشك أن راسل وأمثاله من فلاسفة " أوربا " والذين قادوا حملة تمرد على الدين في عصر– ما بعد الثورة الفرنسية – ما هو إلا بسبب انحراف المسيحية وطغيان الكنيسة ورجالها، وما قاموا به على مر العصور من مصادرة حرية الرأي، والمعتقد، والفكر، والتسلط بوحشية على شعوبها وشعوب غيرها، وإقامة محاكم التفتيش، كل ذلك زعزع ثقة هؤلاء بالدين والأخلاق، تاركًا وراءه– أزمة أخلاقية – وليس ببعيد ما تمارسه اليوم " العلمانية " من مصادرة حرية " الأديان "وتطبيقها، وحرمانها الفرد – خاصة المسلم – من إقامة أبسط حقوقه من إظهار هويته الدينية بل وسن القوانين الصارمة في هذا المجال ، مما يخلق روحًا عدائية في المجتمع، فأين ذلك من روح التسامح الإسلامي الذي وقفنا على بعض جوانبه.

التسامح وفق المنظور الإسلامي، فضيلة أخلاقية، وضرورة مجتمعية، وسبيل لضبط الاختلافات وإدارتها، والإسلام دين عالمي يتجه برسالته إلى البشرية كلها، تلك الرسالة التي تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم وترسي دعائم السلام في المجتمع، وتدعو إلى التعايش الإيجابي بين البشر جميعًا في جو من الإخاء والتسامح بين كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم. فعالمنا اليوم في أشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الإيجابي بين الناس أكثر من أي وقت مضى، نظرًا لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يومًا بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية التي أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب، حتى أصبح الجميع يعيشون في قرية كونية كبيرة. والسماحة ليست تنازلا عن مبدأ، أو عدم اكتراث بالخلاف بل السماحة معرفة الآخرين والتحاور معهم للوصل إلى الحقيقة بأدلتها دون تعصب.

وقيمة التسامح تنطلق من النظر إلى الاختلاف بين البشر باعتباره واقعا لا يمكن إلغاؤه، ويشير القرآن إلى ذلك في قوله تعالى:"وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ"[61]

وهذا الاختلاف قد يكون من باب التكامل، لكنه إذا كان يمثل تناقضا بين الحق والباطل، فالسبيل هو منطق الحوار بمنهجيته التي قال الله فيها :" ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ."[62]

الخاتمة والتوصيات:

التسامح فريضة في ديننا وفي حياتنا اليومية، فريضة بنص القرآن الكريم قال تعالى ((لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم)) [63] ليؤكد أن الدين الإسلامي لم يأت ليجبر أحداً على اعتناقه أو يحيا تحت رايته مكتوما مجبرا مكرها على الشئ...

وتظهر السماحة في شكل التغاضى عن الماضي البغيض ليفتح الجميع صفحة بيضاء يتآلفون فيما بينهم قال تعالى ((واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا))[64]. والجماعة الواحدة لاتخلوا من خلافات واختلافات تتنوع ما بين عصبية قبلية أو قومية نزعية، لكن الإسلام لايعترف بتلك الفوارق ويؤكد الرسول ذلك فيقول عليه الصلاة والسلام ((دعوها فإنها منتنة))[65].

والتعايش أمر فرضته الشريعة الإسلامية، التعايش مع غير المسلمين من أهل الكتاب ومن غيرهم، أولئك الذين يدبرون المكائد ضد المسلمين صباح مساء بل مكر الليل والنهار لا يهدأون أبداً، لكن الدين الإسلامي يحكمنا بالعدل. ألا نضع الأعداء في سلة واحدة بل من أتجه للود و التربط فإن الإسلام لا يمنع المسلمين أن يمدوا له يد التعاون والبر قال تعالى ((لاينهاكم الله عن الدين لم يقاتلوكم في الدين، و لم يخرجوكم من دياركم، أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن

يقولهم فأولئك هم الظالمون))[66] كما تظهر السماحة إن منهج الدعوة حين تتعلى بالوسائل الحكيمة والسبل الرشيدة قال تعالى ((أدع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن))[67] لتكون السماحة هي الأسلوب الأليق والأرقى في كل مناهج الدعوة في أي دين.

ولم يهمل الإسلام كيفية التعامل مع المخالفين لنا وهم كثر، والصبر على أذاهم وذلك من وجهة التسامح وفتح مجال لعدم غرس معاني الكراهية فقد يسلم كافر الأمن غداً، فإذا لمس من المسلمين في الماضي تسامحاً شجعه هذا على الدخول في دين الله دون خوف من إنتقام أو قصاص.

كذلك فرض القرآن علينا عدم شق الصدر بالغل والكراهية تجاه أهل الكتاب ووضع ضوابط الأجل استمرار التسامح– على الأقل من جهة المسلمين– قال تعالى ((ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن)) [68]وفي ذلك استمرار لعلاقة الود من جهة المسلمين.

وتبلغ السماحة تجاه أصحاب الأديان الأخرى سماوية كانت أو أرضية أن منع الله جل شانه سب آله الآخرين قال تعالى ((ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم))[69] و في فطرتنا احترام مقدسات الغير حتى ولو كانت غير منطقية وغير مقبولة وهذا بالطبع أمر وارد.

ويضع القرآن دستوراً عاماً يفرض به التسامح كمنهج مستمر، لأن الذين يدخلون الدين غالباً قد أساؤا في الماضي إلى الإسلام ورسول الإسلام، فلا بد من فتح صفحة جديدة لهم. وقد يخطئ المسلمون أيضاً كما فعلوا في واقعة "أحد" ويخالفوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتركوا الجبل فتقع أشد الهزائم عليهم حينئذ يضع الله القاعدة الأساسية للتسامح جملة دون النظر إلى التفاصيل قال تعالى ((خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)) [70]

وهناك قواعد أخرى تفرض التسامح منهجا في كل الوجوه سواء كان الخطاب للمسلمين أو للكافرين أو لأهل الكتاب أو لأي طوائف أساسية عامة قال تعالى: ((وقولوا للناس حسنا، وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة))[71]. هنا مصطلح عام لكل الإجناس دون النظر للدين أو اللغة ((وقولوا للناس حسنا))

ثم يربط الله هذا مسلك التسامحي بالعفو عن المسلمين في المستقبل إذ الأمر لايخلو من ذنوب نرتكبها ومخالفات نقع فيها حتما... فإذا تحلى المسلمون بالتسامح رهن الله ذلك الفعل بالعفو عنهم منهم مستقبلاً قال تعالى ((وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم))؟![72] وبالطبع هذا بعض من منهج الشرع الإسلامي الحنيف لمنهج التسامح آيات من أجتهاد أحد من فقهاء أو مفكرين وإنما من القرآن الكريم المصدر الدول والأساسي للتشريع.

المشكلة التي تكمن في تفعيل هذا التسامح وتطبيقه في حياتنا فهنا نود الإشارة إلى بعض الأمور:

1. مفهوم خطاب الديني:– شاع في الغرب مصطلح (الخطاب الديني) وهذا يعني أن الدين ليس تطبيقاً بل تحول إلى لغة خطاب (كلام فقط) .وهذا جعل المصطلح فارغاً من معناه، فالدين لدينا تطبيق وليس كلاما.

2. التسامح لابد من أن يدخل في مناهج التعليم منذ الصغر وفي حياتنا المنزلية وأساليبنا التربوية. وأن يتضمن قراراتنا الإجتماعية والسياسية بفروعها اليومية.

3. التسامح ليس فقط مطلوب منا نحن المسلمين بل هو مطلوب من مخالفينا في العقيدة، فليس من المعقول أن يكون التسامح آلية فكرية وعقيدة تربوية للمسلم في حين أن مخالف يشتغلون سماحته وتسامحه الذي تربي عليه في دينه وحياته ويلحقون به الأضرار والشرور.

إننا نبرز مثلا كيف حافظ الإسلام على الديانات الأخرى ومنحهم حرية العبادة على إطلاقها في حين أن الأقليات الإسلامية تعامل بمنتهى السوء في دول غربية وتصفية العرقية بارية للعيان. فالمسلم أولاً وآخراً يبادل غيره الشعور والوجدان "ودوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من أفوههم، وما تخفي صدورهم أكبر"[73] حتى أن القرآن وصف ذلك بقوله ((تحبونهم، ولا يحبونكم)).

4. تعديل مناهج الغرب في التعليم التي تضع العداء الإسلام بلا مبرر في حين إدعاء العالم العيش في السلام العام. وهذا يبدو ظاهراً من أساليب تضليل العوام في أوربا وأمريكا وإعلان أن الإسلام دين جدلى في حين أن معارك المسلمين جميعاً و ضحايا هذه الحروب لم تتجاوز الحد المعقول. يعد أن ضحايا الحرب العالمية الأولى زاد عن20 مليون نسمة، وضحايا الحرب العالمية الثانية تجاوز الستين (60 مليون) نسمة و من الإحصائيات من بلغت سبعين مليون (70 مليون). كما أن الحروب الإصلاح الديني في أوربا المسيحية تجاوز أربعين مليون نسمة.

5. ضرورة إظهار الغرب لمبادئ الإسلام الحقيقية، لأن رد فعل المسلمين نابع من عنف الغرب وظلمه للإسلام والمسلمين، وبيان تسامحه منهج ديني لفئة من سكان الأرض لم تسجل التواريخ مطلقاً بداية عدوانهم علي أحد.

هوامش

1 سورة الحج :78

2 أخرجه أحمد (266/5) عن عائشة رضي الله عنها بإسناد حسن

3 أخرجه البخاري (39) باب الدين يسر وقول النبي صلى الله عليه وسلم أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة

4 ابن منظور ،لسان العرب، دار المعارف، ظ 2008م، مادة (سمح)(355/6،و انظر التعريفات للجرجاني (ص 127)

5 عبد السلام ، الدكتور جعفر ، التسامح في الفكر الاسلامى، ، طبعة رابطة الجامعات الإسلامية 2، سلسلة فكر المواجهة، ص4

6 زيادة، معن، الموسوعة الفلسفية العربية ، معهد الإنماء العربي،1988م ،ص:(235/1)

7 النبهان، د .محمد قارون ، تأملات في الفكر الإسلامي ،مفهوم التسامح في إطار الرؤية الإسلامية، سوريا،دار القلم العربي ،1994ص 85

8 البخاري :4024، أخرجه أحمد (7361) و البيهقي في الدلائل (4. 79-81)

9 أخرجه البيهقي في الدلائل 3/ 214 ، (وأصله في مسلم 2599)

10 ابن هشام ، عيد الملك،السيرة النبوية ،تحقيق:مصطفي السقا، مصر، مصطفي البابي الحلبي،1955،ص 94/4(، وذكره عامة أهل السير، وفي إسناده ضعف انظر هامش فقه السيرة للغزالي) ص39

11 صحيح مسلم – كتاب الجهاد – باب فتح مكة: 178

12 شاكر،محمود، التاريخ الإسلامي (السيرة) ، بيروت،المكتب الإسلامي،1421هـ، ص: 315/2

13 شاكر،محمود، التاريخ الإسلامي (الخلفاء الراشدين) ، ص: 132/3

14 سورة الممتحنة 12

15 إبن الأثير، أبو الحسن علي ،تحقيق علي محمد معوض ،أسد الغابة في معرفة الصحابة،(كشكول)،دار الكتب العلمية،ط1994،1،ص: 321/6

16 ابن حجر،أبو الفضل أحمد بن علي ،الإصابة في تمييز الصحابة، ،،دار الكتب العلمية،ط1415،1هـ،ص:444/4 و تاريخ مدينة دمشق ص:63/41

17 نفس المرجعين

18 نفس المرجع

19 الزركلي، خير الدين، الاعلام ، دارالعلم للملايين ،ط 15، 2002م،ص:244/4

20 انظر :سيرة ابن هشام60/4 ، زاد المعاد ص:413/3

21 صحيح البخاري – كتاب الأدب – باب صلة الولد المشرك وباب صلة المرأة بأمها ولها زوج 10 / 413 ح 5978 و 5979

22 (أخرجه البخاري) رقم 6914

23 االبن القيم،أحكام أهل الذمة ص:50/1-51

24 رواه أبوداود وفى إسناده: أشعث بن شعبة المصيصى قد تكلم فيه والحديث قابل للتحسين.

25 (أخرجه البخاري) رقم 1356

26 مكارم الأخلاق 111/1

27 العثيمين الشيخ محمد ،شرح العقيدة الواسطية ، ص 678

28 سورة الإسراء :33

29 ابن ناصر السعدي ،لعلامة الشيخ عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الدمام ،دار الذخائر– 1420هـ–2000م ، ص:304

30 أبن كثير،تفسير القرآن العظيم – تفسير أبن كثير– ، تحقيق :عبد الرازق المهدي – بيروت ، دار الكتاب العربي،2011م ص:99/3(، أخرجه البخاري) رقم 6914

31 الجراعي الحنبلي ، أبي بكر بن زيد عناية المطلب في معرفة المذهب، ، تحقيق: د .ناصر بن سعود السلامة، الرياض، مكتبة، الرشد-1427هـ-2006م ص:650-665

32 الشجا ع ، عبد الرحمن ،تاريخ اليمن في الإسلام حتى نهاية القرن الرابع : ، صنعاء، دار الفكر. ص 30 ،و ابن سعد : الطبقات الكبري، دار صادر، بيروت،(د.ت) ص: 357/1

33 الحافظ ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثيرالدمشقي حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه علي شيري،البداية و النهاية : دار إحياء التراث العربي الطبعة الاولى 1408هـ. ص:55/5

34 هذه المعاهدة ورد ذكرها في كتاب الأموال لأبي عبيد ص 292 - 295 والأموال لابن زنجويه 2 / 466 - 470 وسيرة ابن هشام 2 / 92 والروض الأنف 4 / 293 ومجموعة الوثائق السياسية من ص 41 - 50.

35 أبو عبيد: الأموال ص 296.

36 د .مهدي رزق الله أحمد ،السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، 1412هـ/1992م ، مركز الملك فيصل للبحوث .ص:723

37 د.محمد الزحيلي، حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة، كتاب الأمة، العدد 87 ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1423هـ. ص:65

38 كارل بروكلمان ،تاريخ الشعوب الإسلامية / ص:78، وانظر :أجناس جولد تسيهر ،العقيدة و الشريعة في الإسلام.:

39 فتح الباري

40 ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، أبو خالد القرشي الأسدي . أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه . وغزا حنينا والطائف .وكان من أشراف قريش ، وعقلائها ، ونبلائها وكانت خديجة عمته ، وكان الزبير ابن عمه. دخل الشام أيام الفتوح. لم يتخذ هشام أهلاً ولا ولداً، وتوفي قبل وفات أبيه حكيم بزمن. له واقعة مع عمر بن الخطاب حول الاختلاف حول قراءة القرءان، وآخر مع والي حمص عياض بن غنم أيام فتوح الشام حول الشدة مع التعامل مع الناس، وذُكر في الخبر حديثين للنبي محمد. (انظر سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي)

41 كتاب البر والصلة والآداب

42 محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية ،ص:381

43 نفس المرجع و الصفحة

44 نفس المرجع ، ص: 441،458،502

45 نفس المرجع ، ص 92

46 د .راغب السرجاني،مصر في عهد عمرو بن العاص، موقع قصة الإسلام

47 انظر الرشيدي، سالم .(1989) *محمد الفاتح* .جدة - السعودية :مكتبة الإرشاد، ط 3. صفحات صفحة 409.

48 روح الدين الإسلامي ص 410 وانظر: د /عبد الكريم عثمان، معالم الثقافه الإسلامية ،

49 حضارة الغرب:10

50 دفاع عن الإسلام :ص 34- 35

51 حضارة الغرب :ص 12
52 عبد الملك سالمان، التسامح في ديننا، مجلة الكلمة، ص: 38
53 تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص:61
54 د /محمد الزحيلي ،حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة" : مقاصد الشريعة أساس لحقوق الإنسان "ص :65
55 الشهرستاني:،الملل والنحل، ج 1 ص 2
56 سفر الخروج الإصحاح :11،12
57 نفس المصدر ص:7
58 سفر يشوع ، الإصحاح :6
59 د .صابر طعيمه ،الأسفار المقدسة قبل الإسلام، وانظر أحمد شلبي ،مقارنة الأديان اليهودية ،وأنظر اليهودية والمسيحية لدكتور محمد ضياء الأعظمي وأنظر فضح التلمود الأب براناتيس ،حيث بينوا وعلقوا على مافي التلمود من قبائح أخلاقية.
60 أطماع اليهود و أسفارهم، ص: 182
61 سورة
62 سورة النحل :125
63 البقرة 256.
64 آل عمران 103
65 رواه البخاري (4905) ومسلم (2584) عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : يَا لَلْأَنْصَارِ !! وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ : يَا لَلْمُهَاجِرِينَ !! فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : (مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ؟) قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ . فَقَالَ : (دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ)
66 سورة الممتحنة :8
67 سورة النحل : 125
68 سورة العنكبوت :46 :
69 سورة الأنعام : 108
70 (الأعراف 199)
71 (البقرة 82)
72 سورة النور :22
73 سورة: الآية: